

أحاديث رمضان ١٤٣٥ - خواطر إيمانية - الدرس (٥٠) : الحديث الشريف (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ؛ كتاب الله وسنتي ...)
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٤-٠٧-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين ، وعلى صحابته الغر الميامين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، وارضَ عنا وعنهم يا رب العالمين ، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

النبي الكريم معصوم من أن يخطئ بأقواله وأفعاله وإقراره وصفاته :

أيها الأخوة الكرام ، من الأحاديث النبوية الشريفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
((إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ؛ كتاب الله وسنتي))

[الحاكم في مستدرکه عن أبي هريرة]

الحقيقة النبي عليه الصلاة والسلام لأنه
مشرع :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ
عَنْهُ فَأَنْتَهُوا ﴾

[سورة الحشر : ٧]

إذاً هو معصوم ، معصوم من أن
يخطئ بأقواله وأفعاله وإقراره وصفاته ،
مثلاً أحد أصحابه توفاه الله ، فذهب إليه
قبل أن يدفن فسمع امرأة تقول :

((.... يا عثمان بن مظعون رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله))

[الحاكم عن أم العلاء الأنصارية]

لو أن النبي سكت لكان كلامها صحيحاً فقال عليه الصلاة والسلام :

((.... وما يدريك أن الله أكرمك ؟ فقالت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يكرمه الله ؟ فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هو فقد جاءه اليقين فوالله إني لأرجو له الخير ، والله ما

أدري وأنا رسول الله ماذا يفعل بي ؟))

[الحاكم عن أم العلاء الأنصارية]



معنى ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام أقواله سنة ، والأدق من ذلك ما صح من أقواله سنة ، وأفعاله سنة ، وإقراره سنة ، وصفاته سنة ، هذا مقام النبي الكريم لأنه مشرع هو معصوم ، عصمه الله عز وجل ، ولكن قد يقول قائل لم قال الله عز وجل ؟

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾

[سورة عبس: ١-٢]

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة : ٤٣]

الجواب الدقيق أن الله جل جلاله لحكمة بالغة بالغة ترك للنبي هامشاً اجتهادياً ضيقاً جداً ، فإذا أصاب النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الهامش الاجتهادي الذي هو بالأصل :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

[سورة النجم: ٢-٤]

وكان اجتهاده وفق ما ينبغي سكت الوحي ، وسكوت الوحي إقراره على اجتهاده ، فإذا لم يكن اجتهاد النبي كما ينبغي الوحي صححه فقال تعالى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾

[سورة عبس: ١-٢]

وقال تعالى :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة : ٤٣]

فصار عندنا هذا الهامش الاجتهادي ، لماذا ؟ ليكون هناك فرق بين مقام الألوهية ومقام البشرية ، هذا الهامش يؤكد هذا الفرق .

كتاب الله و سنة رسوله منهج لكل إنسان في حياته :

إذا :

((إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا

بعدهما ؛ كتاب الله وسنتي))

[الحاكم في مستدرکه عن أبي هريرة]

هناك آية مكملة قال تعالى :

﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾

[سورة النساء: ٥٩]

2

هما ؛ كتاب الله وسنتي ...



من هم أولو الأمر برأي الإمام الشافعي ؟ هم الأمراء والعلماء ، أو العلماء والأمراء ، العلماء يعلمون الأمر والأمراء ينفذون الأمر ، الآية تقول :

﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ﴾

[سورة النساء : ٥٩]

مع من ؟

﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾

[سورة النساء : ٥٩]



إن تنازعتم مع أولي الأمر وهم العلماء والأمراء :

﴿ فَزِدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

[سورة النساء : ٥٩]

أحالتنا الله على الكتاب والسنة ، وهل يعقل أن خالق الكون رب العالمين الإله العظيم يحيلنا إلى مصدرين ثم لا نجد فيهما ما نحتاجه من تشريع ؟ هذا مستحيل ، إذاً ما من شيء يؤثر في

علاقتنا بالله تأثيراً إيجابياً ولو درجة واحدة إلا ذكره النبي ، وما من شيء يبعدنا عن الله ولو درجة إلا وذكره النبي ، لذلك قالوا : النبي عليه الصلاة والسلام لا يؤخر البيان عن وقته أبداً ، معصوم من أن يخطئ في أقواله وأفعاله وإقراره ، لكن لا يؤخر البيان عن وقته ، ما من قضية مهما بدت صغيرة ، لها أثر إيجابي أو سلبي في العلاقة بالله عز وجل إلا ذكرها النبي ، لكن أحياناً إنسان يرتدي ثياباً لا يوجد فيها زخرفة أو خطوط ، هذا شيء ليس له علاقة ، هذا سكت عنه الوحي رحمة بنا ، هناك أشياء أمرنا بها ، و أشياء نهانا عنها ، و أشياء سكت عنها ، فالإنسان الشيء الذي سكت عنه الوحي الأولى ألا يبحث فيه ، إن بحث فيه جاء التضييق .

الدين توقيفي لا يزداد عليه ولا يحذف منه :

لذلك مما يكمل هذا الحديث الشريف :
(فعلیکم بسنتي ، وسنة الخلفاء
الراشدين المهديين عضوا عليها
بالنواجذ ، وإياکم ومحدثات الأمور ،
فإن كل بدعة ضلالة))

[المستدرک علی الصحیحین عن العریاض بن ساریة]

3

الدين توقيفي وكامل لا يزداد عليه ولا يحذف منه ؛ كتاب الله وسنتي ...



البدعة في التشريع ، لكن أحياناً نسمع كلاماً لطيفاً : التجديد في الدين ، الدين لا يجدد ، الدين توقيفي لو أضفت عليه شيئاً إنك تتهمه ضمناً بالنقص ، ولو حذفته منه شيئاً إنك أيضاً تتهمه بالنقص ، الدين توقيفي لا يزداد عليه ولا يحذف منه ، لكن من أروع ما مرّ بي في موضوع التجديد في الدين أن ننزع عن الدين كل ما علق فيه مما ليس منه ، هذا تجديد ، هناك خرافات و شطحات و بدع ، كل ما علق بالدين مما ليس منه ، التجديد بالدين يقتضي أن تنزع عنه هذه الأشياء التي ليس منه ، تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها ، الأمور واضحة جداً :

((...فإن كل بدعة ضلالة...))

[المستدرك على الصحيحين العرياض بن سارية]

حينما تفكر أن تضيف على الدين شيئاً أنت ضمناً تتهمه بالنقص ، وحينما تفكر أن تحذف منه شيئاً إنما نتهم الدين بالنقص ، ولكن حينما أضفنا على الدين ما ليس منه صرنا شيعياً وأحزاباً وتقاتلنا ، وحينما حذفنا منه ما هو ضروري كالجهد ضعفنا ، بالإضافة نقاتل وبالحذف نضعف ، أما إذا طبقنا هذا الدين كما جاء من دون أن نزيد عليه ومن دون أن نحذف منه وصلنا إلى ثماره الجماعية والفردية .

عظمة هذا الدين أنه دين جماعي ودين فردي :

ولكن أنا أحاطب أفراد المسلمين لا مجموعهم لو أن الأمة لم تطبق الدين وأنت أردت أن تتجو بحياتك من أن تعصي الله طبقه وحدك



إن طبقته وحدك تقطف ثماره الفردية ، فعظمة هذا الدين هو دين جماعي ودين فردي ، تطبقه الأمة فتنتصر :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

[سورة النور : ٥٥]

هذا وعد إلهي وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

[سورة النور : ٥٥]

قانون :

﴿ وَلَيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمْ ﴾

[سورة النور : ٥٥]

لكن هناك ملمحاً دقيقاً بالآية ، أي دين وعد بتمكينه ؟ الدين الذي يرتضيه الله ، هناك دين أساسه فلكلور ، أساسه احتفالات ، أساسه لقاءات ، أساسه تباه ، هذا الدين الذي لم يرتضيه الله لنا لا يمكن ، لا يمكن إلا الدين الذي ارتضاه لنا .

الآن بركم إن لم تكن مستخفين ، ولم تكن ممكنين ، ولم تكن آمنين ، العلة عندنا لأن آخر الآية :

﴿ يَغْبُوتُنِي ﴾

[سورة النور : ٥٥]

فإذا أخل الطرف الآخر بما كلفه الله به من عبادة فإله عز وجل في حل من وعوده الثلاثة .

من طبق سنة النبي فهو في مأمن من عذاب الله :

الآن الآية الدقيقة جداً قبل أن أذكرها عندنا صيغة باللغة العربية اسمها نفي الشأن ، هناك نفي الحدث ونفي الشأن ، مثلاً تسأل إنساناً : هل أنت جائع ؟ يقول لك : لا ، انتهى ، لكن لو سألت إنساناً محترماً جداً هل أنت سارق ؟ معقول أن يقول لك فقط لا ؟

يقول : ما كان لي أن أسرق ، أي هذا مستحيل وألف ألف مستحيل ، لا أقبل به ، ولا أسكت عنه ، ولا أرضاه، عدّ علماء النحو عشرة معاني من نفي الشأن :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾

[سورة الأنفال : ٣٣]



أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن نعذبهم وأنت فيهم ، طبعاً في حياته موضوع ثان، بعد انتقاله للرفيق الأعلى وأنت فيهم أي :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

[سورة الأنفال : ٣٣]

أي وسنتك قائمة في حياتهم ، إذا طبقنا سنة النبي مستحيل وألف ألف مستحيل أن نعذب ، الآية :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

[سورة الأنفال : ٣٣]

المعنى أن الله عز وجل أعطانا بحبوتين الأولى تطبيق سنة النبي إن طبقناها فنحن في مأمن من عذاب الله ، لو زلت قدمنا واستغفرتنا ، نحن أيضاً بعد الاستغفار في مأمن من عذاب الله ، هذا كلام دقيق للأمة :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

[سورة الأنفال: ٣٣]

أي سنتك مطبقة في حياتهم .

المؤمن لا يندم على ما فات ولا يخشى مما هو آت :

الآن الآية الكريمة :

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[سورة البقرة : ٣٨]



كلمة لا خوف عليهم تغطي جميع الأزمنة ، لا خوف عليهم من المستقبل، ولا هم يحزنون على الماضي ، غطت المستقبل والماضي وحيثما وردت هذه الكلمة :

﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[سورة البقرة : ٣٨]

لا تندم على ما فات ولا تخشى مما هو آت ، لذلك قال تعالى :

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾

[سورة التوبة: ٥١]

والفرق كبير باللغة بين لنا وبين علينا ، الآية ليست علينا ، الآية :

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾

[سورة التوبة: ٥١]

أي المؤمن يجب أن يصدق خبر الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾

[سورة فصلت: ٢٠]

لا تخافوا مما سيأتي ، لا يأتي إلا الخير ، ولا تحزنوا على ما فات ، من أروع ما قرأت عن سيدنا الصديق رضي الله عنه أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط أبداً ، مؤمن بالتوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، لذلك :

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة التوبة: ٥١]

الله عز وجل تولى بذاته العلية هداية خلقه :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾

[سورة الليل: ١٢]

وحيث وردت كلمة على مع لفظ الجلالة
تعني أن الله جل جلاله ألزم ذاته العلية
بهداية خلقه ، للتقريب إنسان بألسكا رأى
الشمس والقمر فقال : يا ترى هذا الكون
أليس له إله ؟ ما تعلم شيئاً بحياته ، ما
سمع كلمة حق بحياته ، ما التقى بعالم
بحياته من جميع الأديان ، هذا الإنسان
يبحث عن وظيفة وجد وظيفة في أمريكا
أو في كندا ، هذه الوظيفة تقتضي السفر



إلى الخليج مثلاً بالخليج جاره مسلم ، لأنه قال : يا ترى هل يوجد إله أم لا ؟

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾

[سورة الليل: ١٢]

الله ألزم ذاته العلية بهداية خلقه ، هناك آية ثانية :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾

[سورة الأنفال: ٢٣]

لا نقلق على العباد ، أنا أقول دائماً وأبداً : لا نقلق على هذا الدين إنه دين الله ، ولكن اقلق ما إذا
سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون جندياً له فقط ، إذاً :

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة التوبة: ٥١]

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾

[سورة التوبة: ٥٢]

أي الشهادة أو النصر ، لذلك الحرب بين حقين لا تكون ، لأن الحق لا يتعدد ، كما أنك لا يمكن
أن ترسم مستقيمين بين نقطتين مختلفين عن بعضهما يأتي الثاني فوق الأول ، لا بد أن تنطبق مئات
الخطوط المستقيمة بين نقطتين على بعضها ، إذاً هناك خط واحد ، فالحق لا يتعدد ، الحرب بين
حقين لا تكون ، و بين حق وباطل لا تطول لأن الله مع الحق ، و الحرب بين باطلين لا تنتهي ،
العملية طويلة جداً ، يوجد خلل بالطرفين :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبُّونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾

[سورة التوبة: ٥٢]

الإِنسان المستقيم يطمئن لوعده الله و يصدقه :

أخواننا الكرام بربكم ، الرسول الكريم في أثناء الهجرة تبعه سراقه قال له كلمة فكر فيها بعمق ، شيء مدهش



النبى ملاحق أثناء الهجرة ، ومئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، قال له النبى الكريم : يا سراقه كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟ إنسان مهدور دمه ، ووضع مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، والذي حصل ، معنى كلامه أنا سأصل إلى المدينة سالماً ، وسأنشئ دولة ، وسأنشئ جيشاً ، وسأحارب أكبر دولتين في العالم ، وسأنتصر عليهما ،

وسوف تأتي إلى المدينة غنائم كسرى ، و لك يا سراقه سوار كسرى ، هذه ثقة النبى بنصر الله ، هذا مقام النبوة ، كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟ وفي عهد سيدنا عمر جاءت كنوز الفرس ، يقول بعض الرواة : إن صحابياً وقف وأمسك رمحه و رفعه إلى أقصى درجة ممكنة ، وطوله متران ، ما رأى رمح الطرف الآخر ، كلها أموال و ذهب وما شاكل ذلك فقال : إن الذي أدى هذا لأمين ، كنوز بالمليارات أتت من بلاد الفرس إلى المدينة فقال سيدنا علي رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين أعجبت من أمانتهم لقد عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا ، كلام واضح كالشمس ، على كل بحث عن سراقه وألبسه سوار كسرى ، هذا الدين ، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، لذلك :

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾

[سورة التوبة: ٥١]

أريد من هذا الشرح أن الواحد ما دام مستقيماً يجب أن يطمئن لوعده الله ، الطمأنينية تعني التصديق لوعده الله :

﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾

[سورة التوبة: ١١١]

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾

[سورة النساء : ٨٧]

لذلك الآية الدقيقة جداً :

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

[سورة القلم: ٣٥-٣٦]

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

[سورة القصص: ٦١]

مستحيل .

لذلك أخواننا الكرام هناك وعود في القرآن زوال الكون أهون على الله من ألا تحقق ، فبطولتنا أن نستقيم على أمر الله ، وأن نتحرك وفق منهج الله ، وبعد ذلك ننتظر كل خير ، الآية نقول :

﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

[سورة الزمر : ٦٦]

بل حرف إضراب تلغي ما قبلها .

والحمد لله رب العالمين